إسهامات "بيير بورديو" في علم اجتماع التربية

سعاد بلحريزي

مقدمة:

ينتمي *بورديو* إلى منظري علم اجتماع التربية المعاصر، حيث تنصب أهم أعماله على سوسيولوجيا الثقافة، كونه قد ركز على العوامل الثقافية إلى جانب المادية في تفسير الظواهر التربوية؛ الأمر الذي جعل البعض يصنف منتجاته العلمية في هذا المجال تحت اسم نظرية "رأسمال لا ثقافي"، إلى جانب تسميات أخرى ك:*البنيويةالتوليدية* وغيرها.

وعموما يبني بورديو نظريته على مقولة رئيسية ستظهر تفاصيلها في هذا المقال ، وهي: أن الثقافة وسط يتم به ومن خلاله عملية إعادة إنتاج بنية التفاوت الطبقي.

بيير بورديو (1930/ 2002) عالم اجتماع فرنسي وأحد أبرز المراجع العالمية في علم الاجتماع ولد بجنوب غرب فرنسا لأب موظف في مصلحة البريد، التحق بمدرسة المعلمين العليا ليتخرج منها أستاذا بارزا في الفلسفة سنة 1954، أرسل إلى الجزائر في الفترة الممتدة من 1958 و1960 لتأدية الخدمة العسكرية وهنا كون مساره المهني في علم الاجتماع ، إلى جانب ذلك قام بتحقيقات ودراسات إثنولوجية بالجزائر أولاها كانت بمنطقة *القبائل* والثانية *بالقل* حول موضوع إعادة إنتاج السلطة الذكورية في المجتمع القبائلي التقليدي، ومن هنا ألف كتابا بعنوان *السلطة الذكورية* نشر عام 1998 .

لفت كتابه *الورثة* الذي صدر عام 1964 بمعية *جون كلود باسرون* الأنظار إلى أصالة أعماله ومنذ ذلك الوقت دخل في خانة كبار المفكرين.

ابتداء من 1969 أصبح أستاذا بالمدرسة العليا للمعلمين، وفي 1982 عين أستاذا بمعهد collège de France، ثم كان عام 1990 فاصلا في مشواره إذ قرر خوض معترك الحياة السياسية الفرنسية فترأس لجنة لتقييم مناهج التدريس بوزارة التعليم وفي سنة 1993 نشر بالتعاون مع كتاب آخرين *بؤس العالم*، هذا الكتاب الذي كان سببا رئيسيا لظهور بيير بورديو على مسرح الحياة العامة، إذ حاز في ذات السنة على المدالية الذهبية للمركز القومي للبحوث العلمية CNRS وازدادت شهرته أخر عمره بخروجه في مظاهرات ووقوفه مع فئات المحتجين المضربين.

أنتج بورديو أكثر من 30 كتابا ومئات من المقالات والدراسات التي ترجمت إلى أبرز الألسن في العالم والتي جعلته يتبوأ مكانة بارزة بين الأسماء الكبرى في علم الاجتماع والفكر النقدي منذ نهاية الستينات من القرن الماضي، "وقد نشراغلبها في مجلات علمية فرنسية ومنها: المدرسة المحافظة، اللامساواة أمام المدرسة والثقافة"[1]

2- البنيوية التوليدية ورؤيتها لظاهرة التربية:

"هي مرتبطة بالذات ب: *بيير بورديو* وتدعى أيضا *ما بعد البنيوية* ولكنها ترجع في أصولها ومبادئها إلى *البنيوية*، إذ يعتبر مؤلَّف *كلود لفي ستروس* أهم المؤلفات التي تكون عليها بورديو، لكن نموذج

هذا الأخير البنيوي لم يظهر إلا في مؤلفه حول الطلبة الفرنسيون عام 1964 ، لأن أولى أعماله كانت أمبريقية أكثر منها نظرية، فأي معارف في نظره "ينبغي أن تؤسس على الملاحظة"[2]، ولذلك لم تتجلى فيها التساؤلات الكبرى للبنيوية إلا بشكل مساعد؛ مثلا: مؤلَّفه الذي هو بعنوان *سوسيولوجيا الجزائر* كان فيه دوركايميا أكثر منه بنيويا".[3]

تبين أعمال بورديو رجوعه إلى "ثلاث مدارس نظرية في علم الاجتماع هي: *الماركسية* وتظهر عندما يستخدم المفهوم السوسيو- إقتصادي المتمثل في *الطبقة*، كما نجد رجوعه إلى *ماكس فيبر* لمّا يتحدث عن التفاعل الاجتماعي باستخدام الثقافة كنسق رمزي ، واخيرا يظهر تأثره ب *إميل دوركايم* في قضية الموضوعية واستخدامه للمناهج المتمثلة في الديمغرافيا والاحصائيات"[4].

3 .1مفاهيمها:

كانت أعمال بورديو منظمة حول المفاهيم التالية:البنية، نظام الوضعيات، الهابيتوس، الحقل، رأس المال الثقافي، إعادة الانتاج الاجتماعي، العنف الرمزي.

" البنية: هي الوضعية أو المكان الذي يحتله الفرد في نظام الوضعيات ؛ ويظهر من خلال أحكام وشهادات وسلوكات الفرد ذاته ، أي أنها أقرب لواقع الأفراد من نواياهم أو تعليلاتهم"[5].

نظام الوضعيات: أو نظام العلاقات الاجتماعية والمقصود به علاقات السيطرة السائدة في المجتمع، أي تحديد الطبقة المهيمِنة من المهيمَن عليها.

الهابيتوس: ويقصد به نسق الاستعدادات الدائمة القابلة للنقل والتي يكتسبها الفاعل الاجتماعي من خلال وجوده في حقل اجتماعي معين.

ويترجم البعض هذا المصطلح " في العربية بلفظ الخصائص النفسية أو الطابع النفسي باعتباره نسقا من الميول والنزعات القوية التي يمكن أن تنتقل من فرد لآخر ، في شكل بنى مبنية لتصبح بنى بانية "[6]، إذن هي ما يتم غرسه في الفرد داخل الأسرة خلال تنشئته الاجتماعية وسط ظروف مادية تختلف باختلاف الطبقة الاجتماعية. إن الطابع النفسي الذي يكتسبه الأفراد ليس دائما نسخة مطابقة لما هو سائد في الطبقة مثلما يسميه بورديو في هذه الحالة ب: هابيتوس إعادة الانتاج وإنما قد يختلف ويتفرد عن روح الطبقة التي تنتمي إليها أسر الأفراد وذلك لعامل مسارهم الاجتماعي أو ما يسمى بالحراك الطبقي إلى أسفل أو إلى أعلى.

الحقل: يرى بورديو"أن العالَم الاجتماعي في المجتمعات الحديثة ينقسم إلى حقول، أي فضاءات اجتماعية أساسها نشاط معين (مثلا: الصحافة، الأدب، كرة القدم...إلخ) يتنافس فيها الفاعلون لاحتلال مواقع السيطرة؛ فعلى غرار التصور الماركسي يبدو لبورديو أن العالم الاجتماعي هو ذو طبيعة تنازعيه تخص مختلف الحقول وليس مجرد صراع بين طبقات معينة وثابتة"[7].ولذلك فإننا لمَّا نقول الحقل السياسي لا نعني به الأفراد الذين يشتغلون في السياسة، وإنما نقصد به نظام الوضعيات أو البنيات لدى أعوان السياسة. أو لما نذكر الحقل العقلي أو الفكري فإننا نعني بذلك نظام العلاقات الاجتماعية بين الأفراد الذين يشتغلون بنظام الانتاج العقلي، أي المنافسة من أجل الشرعية الثقافية.

رأس المال الثقافي: الثقافة عند بورديو نسق رمزي وهو يتمثل في طرقة التفكير والتعبير وفي أشكال

موضوعية مثل الكتب، الأعمال الفنية والأدبية، الشهادات العلمية وفي مجموعة من الممارسات الثقافية مثل زيارة المتاحف، ارتياد المسارح وحضور الندوات، كما يتضمن رأس المال الثقافي مجموعة التمكنات اللغوية.

إعادة الانتاج الاجتماعي: يرى بورديو أن المدرسة لا تعمل بمعزل عن الهرمية أو الطبقية السائدة في المجتمع وإنما هي تقوم بإعادة إنتاج نفس الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية من خلال فرض *الرأسمال الثقافي* للطبقة المسيطرة المالكة لوسائل الإنتاج أو *للرأسمال المادي*، هذا الأخير الذي يعتبره بورديو بني بانية يتحول في كل المجتمعات إلى رأسمال ثقافي أو "بني مبنية لتصبح فيما بعد بني بانية "[8] أي العكس ولأن النظم التربوية هي التي تحافظ على بنية رأس المال الثقافي فسوف تكون بؤرة الصراع في المجتمع المعاصر.

العنف الرمزي: "يقرر بورديو أن أي نشاط تربوي هو موضوعيا نوع من العنف الرمزي لأنه مفروض من جهة متعسفة ثقافيا"[9]ويتعلق الأمر هنا بالطبقة المهيمِنة اقتصاديا التي تفرض رأسمالها الثقافي أو إنتاجها الرمزي في المدرسة عن طريق آليات النظام التربوي في ذلك ؛ كما أن العنف الرمزي لا يمارس فقط داخل النظام التعليمي وإنما أيضا ضمن مؤسسات الثقافة من متاحف، مسارح، نوادي أدبية، فنية...وغيرها.

3 .2البنيوية التوليدية ووظيفة المدرسة:

كان بورديو بنيويا يلجأ في مؤلفاته حول التربية والطلبة الفرنسيين، ذلك لأنه فسر ظواهر المدرسة والجامعة بالرجوع لما هو سائد في المجتمع وليس بمعزل عنه؛ وقد ركز على العامل الثقافي إضافة إلى المادي متجاوزا بذلك كارل ماركس الذي بني ماديته التاريخية على العامل الثاني فقط.

ومن أهم الأعمال التي قدمها بورديو في هذا المجال كانت بالاشتراك مع عالم الاجتماع الفرنسي جون كلود باسرون:

3 .2. 1مؤلَّف الورثة:

الذي تم نشره سنة 1964، وفيه بين العالمان كيف يمارِس النظام المدرسي الانتقاء الاجتماعي على حساب الطبقات الاجتماعية الشعبية.لأن الطلاب المنحدرون من طبقات ميسورة يستفيدون من امتيازات اجتماعية تفتح أمامهم سبيل النجاح في الدراسة، فالأصل الاجتماعي له دور في ذلك وكذا عند عملية التوجيه الجامعي. فعلى الرغم من أن المجتمع الفرنسي قد شهد في 1961-1962 اصلاحات ديمقراطية هائلة في التعليم العالي وعلى الرغم من الاتساع النسبي الذي حدث في الفرص التعليمية أمام جميع أبناء طبقات المجتمع الفرنسي إلا أن هذا النظام التعليمي لازال يمارس عنفا وتعسفا رمزيا ثقافيا ولا زال يكرس الطبقية والهرمية السائدة خارج المدرسة حيث يقول بورديو في هذا الكتاب ما يلي: "إذا كان بإمكاننا الدفاع عن النظام التعليمي فينبغي أن نجعل أهدافه في خدمة الطبقات الفاقدة للتقدير، بحيث نعقلن المؤسسات والطرائق التربوية "[10]، ذلك لأن الأهداف الحالية لا تخدم الوجود الحقيقي للطلبة على اختلاف مجموعاتهم؛ والتعلم لا يعني الابداع والابتكار من طرف الطالب لأشياء جديدة وإنما أن يبتكر في ذاته وشخصيته ففي" أغلب الأحيان يكون الطالب منتَجا بدل أن يكون منتِجا"[11]، بمعنى أنه يكون ناقلا ومستعملا لثقافة أنتجها الآخرون بواسطة آليات التدريب والتمرين اللتين

تشجعان على السذاجة، البلادة والاستهلاك المعرفي والثقافي فيه؛ فهذه الأهداف تعمل على اختفاء شخصية كل من الأستاذ والطالب، أين تسود الطريقة البيداغوجية المسماة ب: *Le cour magistral* ويغيب الدور الحقيقي لكل منهما، لدرجة أنه قد برزت حالات من الشذوذ والانحراف في الوسط الطلابي وبالأخص في باريس.

الأصل الاجتماعي للطالب ونجاحه أو قبوله في الجامعة:

استخدم بورديو في هذا المؤلَّف مفهوم *الأصل الاجتماعي* الذي يعتبره عاملا أساسيا في عمليتي القبول والتوجيه بالتعليم العالي، إذ يعني ذلك في الفصل الأول بعبارة : اختيار المترشحين، انتقاء وفق الامتياز الذي يشير فيها أنه على "عكس ما يوجد بالمدارس، تكاد تكون الجامعات حكرا على أبناء الطبقة البرجوازية، بينما لا يتعدى أبناء العمال نسبة 6%من الطلبة، الأمر الذي يعني أن الوسط الجامعي هو وسط برجوازي؛ وعند القيام بمقارنة بين التفاوت الطبقي في المجتمع ونظيره في الجامعة، يتضح أن الطبقة العاملة الشغيلة الممثَّلة بكثرة في المجتمع هي أقل تمثيلا في التعليم العالي، والعكس صحيح أي أن الطبقة التي تمثِل قلة في المجتمع هي الأكثر تمثيلا داخل الجامعة. فنسبة النجاح في الجامعة مرهونة بمهنة أب الطالب، إذ هي أقل من 1% لأبناء المزارعين و70% لأبناء العمال بينما تمثل أكثر من 80% لأصحاب المهن الحرة؛ وبالتالي فإن المستقبل المدرسي لابن الطبقة البرجوازية مضمون حتما، بينما مستقبل ابن المزارع فهو ضربة من الحظ لا تتعدى نسبة 2%"[12].

الأصل الاجتماعي للطالب وتوجيهه الجامعي:

يصرح بورديو في مؤلَفه هذا أن الشعب العلمية والتكنولوجية كالطب والصيدلة تعد حكرا على أبناء الطبقة البرجوازية، وبالمقابل تبقى حلما نادر التحقق لبقية طبقات المجتمع . من عمال ومزارعين . حتى وان أبدوا تفوقا دراسيا في ذلك، وإنما يتم توجيههم إلى الشعب الأدبية والمهنية التطبيقية. بل لقد مست ظاهرة التفاوت الطبقي حتى الفنون، التي من المفروض أن يكون عامل التمييز ضمنها هو *الموهبة* ولكن الواقع هو أن الفنون مثل: المسرح، الرسم، الموسيقى، الجاز، السينما والشعر هي كذلك تعد حكرا على الطلبة من الطبقة البرجوازية وأن عامل القبول والانتساب هنا هو ليس عامل *الابداع*، بل العامل المادي المتمثل في الطبقة البرجوازية والعامل الثقافي المتمثل في عاداتها الثقافية.

3 .2 .2. مؤلَّف إعادة الانتاج:

هذا الكتاب هو من تأليف نفس العالمين، تم نشره سنة 1970 وهما يهدفان من خلال هذه المحاولة إلى وضع نظرية شاملة حول النظام التعليمي السائد في المجتمع الفرنسي إبان الستينات، حيث تقوم هذه النظرية على نقد المدرسة والجامعة لأنهما تكرسان الطبقية الموجودة خارجهما، "فكل نفوذ يتمكن في وقت معين من أن يفرض معاني معينة مشروعة عن طريق إخفاء علاقات النفوذ التي هي أساس قوته، ويكون بذلك قد جمع قوته الرمزية الخاصة إلى علاقات النفوذ المشار إليها."[13] ويعتبر بورديو أن التعليم هو الذي يختار نوع تلاميذه لا العكس، إذ ينتقي أبناء طبقات معينة ويلفظ الباقي من خلال الرسوب والتوزيع على شعب تعليمية غير مرغوبة اجتماعيا.

آليات النظام التربوي في إعادة الإنتاج الاجتماعي:

يمارَس العنف الرمزي وتتحقق وظيفة إعادة الإنتاج وفق منهج خفي عن طريق آليات تظهَر للعامة في وجه شرعي وهي تتمثل في ما يلي:

- البرامج التربوية: أو المقررات الدراسية وهي تتضمن قيم، عادات، ومعارف تنسجم مع الرأسمال الثقافي للطبقة المهيمِنة اجتماعيا.

- أساليب التدريس أو الاتصال البيداغوجي: تتمثل في الطريقة أحادية الاتجاه التي تجعل الطالب بلا مقاومة مثلما سبق الاشارة إلى ذلك. فأما لدى أبناء الطبقة المسيطِرة فيكون التعليم بهذه الطريقة عملية ممتعة بلا معاناة وأما أبناء الطبقات الدنيا فليس أمامهم سوى بذل الجهد وتحمل القهر لأجل تخطي آليات استبعادهم وتحقيق هابيتوس التسلق الاجتماعي.

نظام الامتحانات: يرى بورديو أن للامتحانات وظيفة اجتماعية لأنها أهم أدوات وآليات النظام التعليمي في تثبيت وغرس القيم المرتبطة بكل نوع من أنواع المعرفة ضمن حقل الثقافة المسيطِرة في المجتمع.

التمكن اللغوي: يتطرق بورديو إلى لغة البرامج والتدريس والامتحانات فيقول أنها تنسجم مع لغة الطبقة المهيمِنة اجتماعيا، وقد اختيرت بحجة أنها أقرب إلى العلم من لغة الطبقة المهيمَن عليها والتي تعتبر في نظر الأولى أقرب إلى التفاهة والسخرية؛ إن تفضيل لغة عن أخرى بهذه الحجج قد يظهر لعامة الناس شرعيا، بينما يراه بورديو شكلا من أشكال العنف الرمزي الذي يحقق وظيفة إعادة الانتاج.

خاتمة:

إن فشل كل الجهود الاصلاحية لرفع كفاية النظم التعليمية في تحقيق مزيد من الديمقراطية في الفرص التعليمية يكمن في تجاهل أو جهل هذه الجهود لتلك العوامل البنيوية التي تربط النظام التعليمي بمصالح الطبقة أو المجموعات الاجتماعية السائدة، من خلال سيطرتها الثقافية على الحقل التربوي.

سعاد بلحريزي جامعة تلمسان

الهوامش:

1- مربوحة بولحبا لنوار: محاضرات في علم اجتماع التربية، الجزء الأول، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران،الجزائر، 2004. 2005،ص47

2-:Pierre BOURDIEU, Jean- Claude CHAMBOREDON , Jean- Claude PASSERON : Le Métier de sociologue, livre 1, école pratique des hautes études-Sorbonne, mouton et bordas, paris, 1968, p 7.

3- Pierre ANSART : les sociologies contemporaines, 3ème édi, éditions du seuil, France, paris, 1990,p34.

4- المرجع نفسه، ص 30.

5- المرجع نفسه، ص 36.

6- حسن البيلاوي: علم اجتماع التربية المعاصر، دارالمعرفة الجامعية، الأزاريطية، الإسكندرية، مصر، ط1، 1997،ص123

7- هشام قاضي : دليل تراجم الفلاسفة والعلماء، لطلبة البكالوريا وطلبة العلوم الانسانية والاجتماعية، دار المفيد للنشر والتوزيع، عين مليلة، أم البواقي، الجزائر، 2010، ص79

8- Christophe BORMANS , Charles TAFANELLI : Dictionnaire des grands auteurs de la littérature et des sciences humaines, jeunes éditions, France, 2000, p 280.

9- محسن خضرة:" بييربورديو..(فيلسوف العنف الرمزي)"، مجلة العربي، العدد 497 ، أبريل 2000، ص64.

10- Pierre BOURDIEU, Jean-Claude PASSERON : Les Héritiers, Les étudiants et la culture, éd minuit, Paris, France, 1964, p 84

11- المرجع نفسه، ص 84.

12- المرجع نفسه، ص 53، 54.

13- محسن خضرة:" بيير بورديو.(فيلسوف العنف الرمزي)"، مرجع سابق، ص 66.